

مكانة القلب وأسباب صلاحه وفساده

٢٨

الخطبة الأولى:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

[النساء: ١].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

يقول الله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ

الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ [الحج: ٥٣-٥٤].

فأخبر الله في هذه الآيات المباركة أن القلوب على ثلاثة أقسام:

١- القلوب المريضة.

٢- القلوب القاسية.

٣- القلوب المخبئة.

وقد قسم النبي ﷺ القلوب إلى قسمين ، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم^(١) عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : [تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عَوْدًا عَوْدًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكْتَةٌ بَيْضَاءٌ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فَتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مَرَبَادًا كَالْكُوزِ مَجْحِيًا ، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ، وَلَا يَنْكُرُ مَنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ] .

عباد الله: هذه القلوب جعلها الله أوعية للإيمان قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْزِمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال ٧٠].

والمراد بالخير في هذه الآية الكريمة الإيمان ، وفي هذا دليل على أن الإنسان يدفع الله عنه الشرور والبلايا بصلاح قلبه ، ويرزقه الخير العظيم ، الذي لم يكن في حسبانته .

وقال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة ٤١].

(١) مسلم برقم (١٤٤).

﴿ زُحْرَةُ النَّخْلِ فِي ﴾

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات ٧].

وقال تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمِنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحجرات ١٤].

وثبت في سنن أبي داود^(١) عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته].

وهذه القلوب جعلها الله محلاً للتقوى قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات ٣].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعْتِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحجرات ٣٢].

وفي صحيح مسلم^(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا] ويشير إلى صدره ثلاث مرات [بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه].

(١) صحيح أبي داود برقم (٤٨٨٠).

(٢) مسلم برقم (٢٥٦٤).

فهذه القلوب هي محل التقوى أو الفجور ، ولذلك ثبت في صحيح مسلم ^(١) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: [... يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ...] .

ولذلك جعل الله النفاق والمرض والزيغ في القلوب قال الله تعالى :
عن المنافقين ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة ١٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَفَلَيْبُ أَفْعَدْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِن آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [٧٥] فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة : ٧٥-٧٧] .

هذه القلوب هي محل الهداية ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ،

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ [التغابن ١١].

هذه القلوب هي محل الخشوع قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ [الحديد ١٦].

وفي صحيح مسلم^(١) عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: [اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب له].

هذه القلوب هي محل الوجع، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ [الأنفال ٢].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الحج ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ [المؤمنون ٦٠].

وهكذا كانت قلوب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لينة رقيقة.

قال: العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب.^(٢)

(١) مسلم برقم (٢٧٢٢).

(٢) صحيح أبي داود برقم (٤٦٠٧).

وجعل الله هذه القلوب محلاً للإجابة قال تعالى: ﴿ وَأَرْزَلَتْ الْجَنَّةُ لِمُنْقِيْنَ غَيْرِ بَعِيدٍ ﴾ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ [ق ٣١-٣٣].

وهذه القلوب هي محل الرحمة والرفقة فقد جاء عند ابن عساكر عن عمرو بن أبي حبيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [خَابَ عَبْدٌ وَخَسِرَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلْبَشَرِ].^(١)

هذه القلوب هي آنية الله من أرضه قال رسول الله ﷺ: [إِنَّ لِلَّهِ آنِيَةَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَآنِيَةَ رَبِّكُمْ قُلُوبَ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ وَأَحْبَبَهَا إِلَيْهِ أَلْيَانُهَا وَأَرْقَاهَا].^(٢)

هذه القلوب هي مناط التكليف ومحل نظر الرب ففي صحيح مسلم^(٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ].

ومن فضل الله عَزَّجَلَّ عَلَى أَهْلِ الْيَمَنِ أَنْ مِنْ عَلَيْهِمْ بِقُلُوبٍ رَقِيْقَةٍ وَطَبَاعٍ لَيْسَتْ فِي الصَّحِيْحِيْنَ^(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: [أَنَا كُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرْقُ أَفْتَدَةَ وَأَلْيَنَ قُلُوبًا الْإِيْمَانَ يَمَانَ وَالْحِكْمَةَ يَمَانِيَةَ وَالْفَخْرَ وَالْخِيْلَاءَ فِي أَصْحَابِ الْإِبِلِ وَالسَّكِيْنَةَ وَالْوَقَارَ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ].

وفي صحيح ابن حبان^(٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ بِالْمَدِيْنَةِ إِذْ قَالَ: [اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَجَاءَ الْفَتْحُ، وَجَاءَ أَهْلُ

(١) أخرجه الدواليبي في الكنى برقم (٩٧١) والسلسلة الصحيحة برقم (٤٥٦).

(٢) السلسلة الصحيحة برقم (١٦٩١) عن أبي عنبه الخولاني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) مسلم برقم (٢٥٦٤).

(٤) البخاري برقم (٤٣٨٨) ومسلم برقم (٥٢).

(٥) صحيح ابن حبان برقم (٧٢٩٨).

اليمن قوم نقية قلوبهم ، لينة طاعتهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية [.

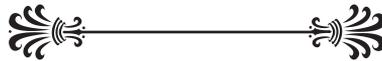
والله تبارك وتعالى هو الذي يتصرف في قلوب البشر كيف شاء ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : إن الله يتصرف في قلوب عباده بما شاء لا يمتنع عليه شيء منها ولا تفوته إرادة .^(١)

فالواجب علينا أن نخاف على قلوبنا من تغييرها من حال إلى حال ومن رأي إلى رأي والمثبت من ثبته الله وحفظ له إيمانه ولذلك قال الله تعالى : عن دعاء الراسخين في العلم ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

وما سمي الإنسان إلا لنسيه وما سمي القلب إلا أنه يتقلب

نسأل الله عَزَّجَلَّ أن يثبت قلوبنا على طاعته ، وأن لا يزيغها بعد هدايتها ، إنه أرحم الراحمين .



(١) فتح الباري (١٣/٣٧٧)

الخطبة الثانية :

الحمد لله الذي منّ علينا بصحة الاعتقاد ، وطهر قلوبنا من أدران الشرك والوثنية والإلحاد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم من يومنا هذا إلى يوم التناد .

أما بعد :

فمعلوم أن العبد إنما ينال المكانة العالية عند الله بصلاح قلبه ، لا بكثرة عمله ، فيجب علينا معاشر المسلمين أن نحقق الإخلاص والتوحيد ، وتعظيم أوامر الله في قلوبنا وأن نظهرها من الغل والحسد والكبر والعجب والنفاق والرياء وجميع الأمراض القلبية والنفسية وهذه مكانة عظيمة إذا وفق الله العبد لتحقيقها ففي سنن ابن ماجه ^(١) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: [كل مخموم القلب صدوق اللسان] . قالوا صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب؟ قال: [هو التقي النقي، لا إثم فيه ، ولا بغي ، ولا غل ولا حسد] .

قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث القلب خبثت جنوده. ^(٢)

وقال الإمام الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: القلب أمير البدن وبصالح الأمير

(١) صحيح ابن ماجه برقم (٤٢١٦)

(٢) مصنف عبد الرزاق (٢٢١/١١)

تصلح الرعية وبفساده تفسد. (١)

وأعظم من ذلك كله ما جاء في الصحيحين (٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال: [... ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت ، فسد الجسد كله ألا وهي القلب] .

إخوة الإيمان والإسلام؛ هذه القلوب سريعة التقلب والتغير ففي سنن ابن ماجه (٣) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ [مثل القلب مثل ريشة تقلبها الريح بفلاة من الأرض] .

وثبت عند ابن أبي عاصم (٤) عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : ما أمن على أحد بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ يقول : [لقلب ابن آدم أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا] .

وهذه القلوب تمرض كما تمرض الأبدان وتصح كما تصح الأبدان فعند الحاكم (٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق ، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم] .

فإذا شعرتم معاشر المسلمين بضعف في الإيمان فلا بد من البحث عن العلاج حتى يعود إلى القلب نوره وإشراقه ولقد صح عن أبي نعيم في الحلية (٦) عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ما من

(١) فتح الباري (١/١٧٥)

(٢) البخاري برقم (٥٢) ومسلم برقم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) صحيح ابن ماجه برقم (٨٨) وظلال الجنة برقم (٢٢٨).

(٤) السنة برقم (٢٢٦) تحقيق الألباني.

(٥) المستدرک (٤/١) والصحيحة برقم (١٥٨٥).

(٦) الحلية (٢/١٩٦) والصحيحة برقم (٢٢٦٨).

القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر ، بينما القمر مضيء إذ علته سحابة فأظلم إذ تجلت عنه فأضاء ، وبينما الرجل يحدث إذ علته سحابة فنتسي إذ تجلت عنه .]

وأعظم ما يسبب إشراق القلب وجلاءه التوبة والإستغفار ، ففي مُسند الإمام أحمد ^(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : [إن المؤمن إذا أذنب كانت نكته سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ذاك الرين الذي ذكر الله عزَّجَلَّ في القرآن ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ١٤] .

وقد خاف رسول الله ﷺ على صحابته تقلب القلوب فكيف بغيرهم ففي سُنَنِ الترمذي ^(٢) عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : كان رسول الله ﷺ يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، فقلت : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ ، قال : [نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، يقلبها كيف يشاء] .

وفي صحيح ابن حبان ^(٣) عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه] ، قال : وكان رسول الله ﷺ يقول : [يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك] ، قال : [والميزان بيد الرحمن ، يرفع قومًا ويخفض آخرين إلى يوم القيامة] .

أيها المسلمون؛ وبما أن للقلوب هذه المكانة وهذه المنزلة التي هي محل نظر الإله سبحانه ، فينبغي أن نهتم ونبحث عن أسباب صلاحها ونبتعد

(١) أحمد برقم (٧٧٧) .

(٢) صحيح الترمذي برقم (٢١٤٠) .

(٣) صحيح ابن حبان برقم (٩٤٣) ، إسناده حسن .

عن أسباب فسادها ، وهناك أسباب لصلاح القلوب منها:

١- ذكر الله: قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد ٢٨]. فالذاكر لربه حي القلب والغافل عن ذكر ربه ميت القلب ، كما جاء في الصحيحين ^(١) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: [مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه ، مثل الحي والميت].

٢- ومن أسباب صلاح القلب ذكر مشاهد الآخرة مثل الموت والقبر والبعث والنشور ، حتى كان بعض السلف يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد علي قلبي.

وأما مفسدات القلوب فمنها:

اشتغال القلوب وتعلقها بغير الله والأشغال الصارفة للقلوب كثيرة :

١- منها حب الدنيا وطول الأمل ، والتماس معائب الناس ، وشغل القلب بهم ، ومنها ارتكاب الذنوب.

رأيت الذنوب تميمت القلوب وقد يورث النذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل بدل الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس فلم يربحوا وفي البيع لم يغل أثمانها
لقد وقع القوم في جيفة بين لذي العقل إنتانها

٢- منها كثرة الضحك كما في سنن ابن ماجه ^(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) البخاري برقم (٦٤٠٧) ومسلم برقم (٧٧٩).

(٢) صحيح ابن ماجه برقم (٤٢١٧)

قال: قال رسول الله ﷺ: [...وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب] .

٣- ومنها كثرة المآكل والمشارب قال : الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: خصلتان تفسدان القلب كثرة الكلام وكثرة الأكل .

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللهُ لكل شيء صداً وصداً القلب الشبع .
وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: ما شبت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة أطرحتها لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة .

٤- ومنها مجالسة أهل البدع وأصحاب الأهواء قال: الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: لا تجلس إلى صاحب بدعة، فإنه يمرض قلبك ويفسد عليك دينك .
وقال ابن سيرين رَحِمَهُ اللهُ: أسرع الناس ردة أهل الأهواء .

وقال ابن عون رَحِمَهُ اللهُ: إذا غلب الهوى على الرجل ، استحسّن ما كان يستقبّحه .

اللهم يا جابر كسر المنكسرين ، ويا راحم ذل المساكين ، ويا مغيث الملهوفين ، ويا ناصر المستضعفين ، ويا مالك يوم الدين ، أسألك أن تصلح قلوبنا وقلوب جميع المؤمنين .

اللهم طهر قلوبنا من النفاق ، وأعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب ، وأعيننا من الخيانة ، إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .